رماد جديدة ..

قصة جديدة بقلم مهدي عيسى الصقر

اجساد النساء تنهصر بشدة في ذلك الخضم الأغبر الكثيف من الاجساد ، والاطفال الصغار يصرخون ، لاهثي الأنفاس ، يبحثون عن الهواء بين الارجل الخشنة القاسية ، وآلاف الآلاف من الافواه تردد بحماس أناشيد الرثاء ، فتختلط الاصوات بعضها ببعض ، بالاصوات الآتية من أقاصي المدينة ، برنين الاجراس المثبتة في رؤوس الاعلام التي ترفرف فوق الجموع ، بأصوات الأكف وهي تهوي بقسوة فوق الصدور العارية المدماة ، بصراخ النساء ، ببكاء الصغار ، برائحة الصديد المتصاعد من الجثث الناضحة بالعرق ، بدخان المشاعل الكبيرة المحمولة امام المواكب ؛ وتتكاثف لتغلّف في ذلك (اليوم) المشهود ، تلك المدينة المقدسة ، وتعزلها عن بقية المدن ، عن بقية الاقطار ، عن العالم .

وكان «قنبر علي» قطرة في ذلك البحر الصاخب ؛ يحاول ان يقف في مكان ما ، فيمشي مرغماً ، دون ان يحرك هو قدميه : يحمله التيار ، تدفعه الجثث المتراصة خلفه ، وتجذبه الجثث المتراصة أمامه . وهو يبكي ، دون ان يفهم ما كانت ترددة الجموع . وكانت عيناه الدامعتان مشدودتين في الأرجل — آلاف الآلاف من الأرجل المتشابكة المتعثرة العجلى — وكأنه يبحث عن شيء : شيء عزيز ضاع قبل خمس سنين بين هذه الأرجل الفظة القاسية .

وكان قنبر علي يحس بالألم جديداً في كل مرة يزور فيها تلك المدينة المقدسة ، وكأن الحادث قد وقع قبل لحظات ؛ فالجو الذي يحيط به هو ذلك الجو نفسه . لم يتغير أي شيء : الخضم الأغبر الكثيف من الاجساد ، آلاف الآلاف من الأذرع العارية ترتفع وتهبط ، الهواء الخانق الذي يغلف المدينة ، وذلك العويل ، العويل الخالد على مر السنين ، والمشاعل ، والصدور المدماة ، والعمائم والأعلام ، والنساء ، والاطفال ، والأرجل ، ملايين من الأرجل ، ولا شيء تغيّر .

وكان قنبر علي ، لهذا السبب ، يحرص على حضور ذلك اليوم لكي يغمره ذلك الاحساس العنيف بالألم ؛ لكي يشعر بالحزن حاداً قوياً كساعة وقعت الحادثة ، ثم يعود ، قرير العين ، هادىء النفس ، الى قريته في شمال ايران ، ليحيا حياة لا حياة فيها ، حتى يقترب موعد ذلك اليوم ، فيسري في عروقه دم جديد ، ويغمره احساس لذيذ بالكآبة ، هو مقدمة لتلك الشحنة من الانفعال الذي سوف يهز كل ذرة من جسده ، عندما يضيع في ذلك الخضم الأغبر الكثيف من الناس جاؤوا من كل صوب .

ويبيع قنبر علي بعض أمتعة داره ، ويقترض ، ويفعل المستحيل ليحصل على النقود ، ويتهيأ للسفر ، اسوة بملايين من المسلمين ، في شتى بقاع الارض ؛ ثم ينحدر في زحمة جثث (الزوار) نحو الجنوب ، ويعبر — متلصصاً — شط العرب ، النهر الذي يجن جنونه اذا ارتفعت الريح قليلاً . ويترك نفسه تحت رحمة المهربين القساة ، لينقذوه من سطوة شرطة الحدود . وينطوي على نفسه — مع الآخرين — في القارب الصغير ، تتقاذفهم الامواج ، وتعبث الريح بهم عبثاً فظاً ، فتقشعر اجسادهم من البرد ومن الرعب ، يتلمسون الطمأنينة في عيون المهربين التي لا تعرف الرحمة ، فيزدادون فزعاً . وتصفع الريح وجه شط العرب ، فتندلق الامواج فوق رؤوسهم ، ويحسون الثلج في مفاصلهم ؛ فيقترب بعضهم من بعض ، يستمدون الدفء والطمأنينة . ويبكون ويتضرعون ، ويتلون الأدعية ، ويلقون شيئاً في شط العرب المجنون ، لتسكت الريح ، وتهدأ الامواج ؛ لكن دون جدوى . ويصرخ بهم احد المهربين ، ويأمرهم ان يصمتوا وان لا يتحركوا ، فيهدأون ويصمتون في يأس واستسلام ، وعيونهم الفزعة مشدودة إلى الشاطىء المظلم البعيد .

وبعد دهر — من الرعب والبرد — يصل بهم القارب الى الشاطىء الآخر . وتدفعهم الأيدي الخشنة ، فيسيرون متعثرين ، يخبطون في ماء الأنهر ، تغور أرجلهم في الوحل ، يعبرون

القناطر المخيفة ، ويسحقون الشوك ،وفوق رؤوسهم تصفر الريح في سعف النخيل فتبعث أصواتاً غريبة موحشة ؛ وحولهم تعول الكلاب كأن بها مساً ، وتئنّ آلاف الحشرات ، بين الاعشاب، تحت اقدامهم. وفي كل لحظة ، يتوقعون ان يسمعوا صوتاً يأمرهم بالوقوف ، أو طلقة تمرق فوق رؤوسهم ، او ان يشاهدوا بنادق حرس الحدود تبرز لهم من الظلام الذي يلف النخيل .

وفي هذه الارض بالذات ، قبل عشر سنين ، أراد احد المهربين ان يعبث بعفاف زوجة قنبر علي الحسناء . وكم تضرع آنذاك ، وكم بكى ، وتوسل الى ذلك الحيوان ان يكف عن المسكينة . توسل باسم الدين ، باسم القرآن الذي نزل على صدر محمد ، باسم الامام الذي يرومون زيارته. وتضرعت هي ، وبكت ؛ ثم اغمي عليها . وفرح المهرب عندما وجدها تفقد القدرة على المقاومة ، وصفع قنبر علي على وجهه . وهجم المهرب الآخر على الزوج المذعور وشد يديه الى ظهره ، ثم رماه ارضاً ، لكي يعطي لصاحبه الفرصة لقضاء ما يريد من المرأة ، ثم يأخذ بعد ذلك نصيبه هو منها .

وفي تلك اللحظة الحرجة من حياة قنبر علي ، برزت بنادق حرس الحدود من وراء النخيل ، فلم يشعر بالفزع لمرآهم ، بل كان سروره عظيماً ، وهوى على اقدامهم يقبلها ، وأسلم نفسه طائعاً ، ليقودوه وزوجته الى السجن ، ثم اعيدا الى ايران ، وحرما من الزيارة ذلك العام .

وبعد ذلك الحادث رفضت « گوهر » أن تصحب زوجها في سفره الى المدينة المقدسة . وقبل خمس سنين ، عندما جاء بابنه « جمشيد » عارضته بشدة ، ولم تسمح للصغير بالسفر مع ابيه ؛ غير ان قنبر علي أصرّ على استصحاب الطفل ليزور قبور الشهداء ، ويشاهد آلاف الآلاف من الناس يضربون فوق صدورهم العارية بقسوة حتى يتفجر منها الدم ، ويمتع نظره بالاعلام الملونة وهي تخفق فوق الجموع ، والمشاعل الضخمة يتمايل بها حاملوها امام الصفوف .

وتشبث « جمشيد » بيد أبيه ، يدفعها ذلك السيل الصاخب من الجثث ، حتى بلغا مفرق طرق ، وهناك شعرا بضغط عنيف معاكس ، فتراجعا قليلاً الى الوراء مع الجموع المتقهقرة . وازداد الضغط ، وأخذ « جمشيد » يبكي . ونظر قنبر علي الى الشارع الآخر ، فشاهد موكباً كبيراً يندفع بقوة ، ويحاول ان يسبق المواكب الاخرى الى قبر الامام . واضطربت الاصوات ، وانزلت الأعلام ، وكفت الأيدي عن الضرب على الصدور لتمتد الى الاسلحة . ودوت طلقة ، فسقط رجل . ثم اختلط كل شيء . وراحت تلك الجموع تتلاطم كامواج شط العرب اذا اشتدت الريح ، وكل واحد يضرب كل واحد آخر – دون سابق عداء او معرفة – وكسرت المشاعل ، وارتفعت النيران من كل جانب ، واصطبغت الارض بالدماء . وكانت الأرجل تطأ كل شيء : النساء ، الكهول ، الاطفال .

وأفلت « جمشيد » من يد قنبر علي في زحام الأرجل المجنونة ؛ وعندما انفثأ غضب الجموع العقيم ، أزيحت جثث القتلى والجرحى من الطريق . وعادت آلاف الآلاف من الافواه تردد – من جديد – أناشيد الرثاء للامام الشهيد .

وحمل قنبر علي طفله الذي مزقته الأرجل ليواريه التراب في مكان ما من المدينة المقدسة .

ومنذ ذلك الحين لم ينقطع قنبر علي عن حضور ذلك اليوم ؛ ففي ذلك الجو الذي لم يطرأ عليه اي تغيير ، يحس بالحزن على ولده عنيفاً وجديداً ، كساعة وقعت الحادثة .

والتفت قنبر علي الى الدكاكين المغلقة حوله ، فوجد نفسه قد ابتعد كثيراً عن المكان الذي كان يقف فيه ، دون ان يحرك هو قدميه ، في زحمة سيل الجثث المنهدّ صوب المنائر الذهبية . وأحس بضغط عنيف معاكس ، ورأى موكباً كبيراً مندفعاً من الشارع الآخر ، يريد ان يسبق المواكب الاخرى الى قبر الامام . وتكهرب الجو . وامتدت الأيدي الى الاسلحة ؛ فأدرك قنبر علي ان دماء جديدة توشك ان تسيل !

مهدي عيسى الصقر

من اسرة الفن المعاصر

اطلب من دار العلم للملايين

الملحمة الشعرية الرائعة

عشتروت وأدونيس

للدكتور حبيب ثابت

طبعة مترفة حافلة بالرسوم الفنية — الثمن اربع ليرات لبنانية